



يعلوني الألم، ويتملكني القدر، ويحيط بي الخجل، وأنا جالس في مكتبي أسطر تلك السطور، والسوريون في إدلب وجسر الشغور وبابا عمرو يكابدون عناء نزف الدم وتضميد الجراح بينما يحيطهم القصف والجوع والظلم، ولست أستطيع أن أخفف من محنتهم شيئاً!

إنني ما تجرأت على أن أمسك القلم لأكتب لأهلي في حمص إلا لأنها رسالة اعتذار، ولستا للأسف نملك سوى الاعتذار.. !! إنها رسالة اعتذار لكل طفل أصبح من يومه يتيمًا لا يجد أباً، وكل طفل صار شليلاً أو كسيحاً أو مبتور الأعضاء وهو في مقتبل حياته وزهرة طفولته..

رسالة اعتذار إلى كل أم ثكلى قد فقدت ولديها بصاروخ مجرم، وراحت صرخاتها وسط ضجيج الصرخات..، و إلى شخص راح يبحث عن بقايا جسد قريبه وسط الأشلاء..

رسالة اعتذار إلى كل حرة انتهك عرضها، ولكل أبية ساموها سوء العذاب، ولكل مريض فقد دواعه ولم يستطع الحصول عليه، فيعاني شدة الآلام، ولكل عائل أسرة قد فقد عمله ومصدر قوته، فيعاني كل حرقه إذ يرى أبناءه يتآملون من الجوع..

رسالة اعتذار من الشعوب لا من الحكومات فهي غير مضطرة ولا مكرهه ولا ضعيفة لتعذر، إنها تستطيع العون وتقدر على الدعم ويمكنها الدفاع، لكنها لها حسابات أخرى قد لا يكون من بينها وقف نزيف الألم في سوريا!

العالم كله يقف صفاً واحداً يتصرف بدم بارد أمام المستضعفين القتلى والجرحى في سوريا، بعضهم يعلن موقفه الخبيث - كروسيا والصين والجزائر- إعلاناً لا يُبكي في وجه صاحبه مزعة لحم من حياء أو إنسانية، والبعض الآخر يلبس قناعاً زائفاً قد تكشفت حقائقه جلية عبر أكثر من دليل.

الغرب أمام أعيننا يتواطأ مع الطائفية الشيعية، ويطلق الرأس أمام رغبات "إسرائيل" في الإبقاء على النظام النصيري الباطني الخبيث.

الأباء تأتينا كل يوم بما يدل على ما نقول، البارجتان الإيرانية اللتان مرتا من قناة السويس على مرأى وسمع من إسرائيل، وموافقة وسماح من مسئولين مصريين، لتسقرا في ميناء طرطوس مركز النصيرية في الشام. واللواء المدرع الإيراني الذي يقتحم على السوريين بيوتهم وبهدمة فوق رؤوسهم، وضباط المخابرات الإيرانيون الذين يقودون

العمليات القذرة، والذين ألقى الجيش الحر القبض على بعضهم وعرضهم أمام الكاميرات.

وفي القدس الذي طالما أعلنت إيران أنها أعدته لفتح القدس، يستبيح الحرمات وبهتك أغراض أخواتنا الشريفات العفيفات أمام مرأى ومسمع رجالهم المكبلين المقهورين، ثم يقتل الرجال أمام أعين النساء المهتكة أغراضهن، بينما الصرحة مكتومة في صدور الأطفال الصغار!

أمريكا من جانب آخر تكتفي بالكلمات المنمقات المشابهة لكلمات النعي من القساوسة التي يقولونها على القبور والموتى، بينما تمتنع عن أي فعل مؤثر، فتمتنع عن حظر الطيران وتمتنع عن تسليح المقاومة وتمتنع حتى عن عقوبات رادعة للنظام السوري.

فرنسا وأوروبا أيضاً يعلنان عدم إمكانية التدخل بشيء لحماية الثوار المستضعفين، وأن مفاوضاتهم هي لمجرد الإغاثة، فيكفيان أمام العالم بدور "الحانوت" !!

ثم تأتي تصريحات وزير الدفاع الصهيوني باراك مطالباً الغرب بتخفيف الضغوط على الجلاد بشار لا على الضحية، تليها الأنباء عن الطيران اليهودي الذي يقصف الثوار في حمص.

كل ذلك ونحن نشاهد المذبحة، وتعرض أمامنا الفضيحة ليلاً نهاراً، حتى مؤتمر تونس الذي أقيم لنصرة المستضعفين صار مؤتمراً "لأصدقاء بشار" !!

إن الكلمات لتأبى التعبير والألفاظ تمتنع عن البيان، ولأن الطرق مسدودة بلون الدم، بلون الألم، والجدران تهدمت، بعدما نخرتها معاعول الألم واشتكت من جلد العدو وضعف الصديق، ولأن الشوارع السابحة في الظلام الدامس تاهت أسماؤها، وتشابهت، فالكل يؤدي لمثوى واحد هو مثوى النزف..

فيما أم الصغير الذي اغتالته دبابات الغل الطائفي القديم: قولي للجالسين فوق موائد بيع سوريا إن ابنك الجميل قد قتل، وهو يلقى صرحة من حنجرته الأبية في مظاهره الإباء..

كل ثلاجات الموتى قد امتلأت عن آخرها، وكل المستشفيات قد امتلأت بالجرح وبالأئن..

مئات الشهداء وآلاف الجرحى تختلط دمائهم بدماء بعض، وتخلط منهم قطرات الدم و قطرات الدم المنهر من قلوب جميع الشعب المجرح بجرح الغدر.

كل شيء كما كان، الدبابات الحقود تصب جام أذاتها في كل صباح مكلوم على البيوت والطرقات، يسقط أطفال صغار، وشيوخ كبار، ونساء أرهقن عناء الطريق، بين قتيل زفته الحور إلى الشهادة، وجريح لا يلوى على شيء سوى الشهادة.. الأمهات يظللن يبحثن عن بقايا جثث أطفالهن في كل مكان.. بجوار أطر السيارات، وأرصفة الشوارع، وأبواب الدكاكين المغلقة..

في صرحة الأم الثكلى.. انتظري قليلاً ليعود إليك طفلك الصغير، لابساً أحسن الثياب، اللون لون البياض، والثغر باسم مزهر، والروح ترفرف من حوله، لقد أسميناها "الشهيد".

جاء ليسعدك بخبر الثبات والإباء والانتصار، يقول لك: يا أماه: أقيت الحجر، وعدت كرجل!! عدت ببسملة على شفتي، يا أماه: إني الأمل، حتى لو مت، فانسجي من أنات موتي ثوباً جديداً وسميه باسم سوريا..

ويَا شعب الشهداء: أیكم الشهيد القادم حتى نعد له أكاليل الانتصار؟! حتى نكتب له ألف قصيدة شعر أبياتها من لون حياة الأبرار..

إن المحنـة دوماً هي رحمـة القـوة، ومنطلقـة ولـادة الـانتصار، وإن آتون الآلام لـتنـصـهـرـ بهـ الصـفـاتـ فـيـتـمـيزـ طـيـبـهـاـ منـ خـبـيـثـهـاـ، فـتـنـقـىـ كماـ يـنـقـىـ الـذـهـبـ الإـبـرـيـزـ، فـلاـ يـبـقـىـ ثـمـ فيـ الـأـطـفـالـ بـعـدـ الـمـحـنـةـ إـلـاـ صـفـاتـ الرـجـوـلـةـ وـالـعـزـمـ، فـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ النـسـاءـ إـلـاـ صـفـاتـ الـفـضـيـلـةـ وـالـصـبـرـ وـالـقـنـاعـةـ، فـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ الرـجـالـ إـلـاـ الـكـرـامـةـ وـالـاسـتـعـلـاءـ فـوـقـ الـأـزـمـاتـ..

إن أظافر المحنـة الجارحة لتفـل حبلاً وثيقاً يربط المؤمن بالله، حين يرى ضعـفه وقلـة حيلـته، ويـدرك فـقره وخـور قـوته، فيـلـجـأ إلى القـوى العـزيـزـ ويـقـرـ له بـكـلـ حـولـ وـقـوةـ وـبـكـلـ قـدـرـةـ وـعـزـةـ وـبـكـلـ قـيـومـيـةـ وـشـهـادـةـ، فيـسـلـ شـأنـهـ لـربـهـ، وـتـصـبـحـ حـيـاتـهـ سـابـحةـ فيـ يـقـينـ رـاسـخـ وـتـوكـلـ مـخلـصـ.. تـنـتـظـرـ لـحظـةـ الـانتـصـارـ..

ثم هـاؤـنـتـ يا رـجـالـ سورـيـاـ، وـبـعـدـ أـيـامـ طـوـالـ تـسـتـقـبـلـونـ يـوـمـاـ آـخـرـ منـ أـيـامـ النـزـفـ، وـكـعـادـتـكـمـ، تـرـفـعـونـ معـهـ رـاـيـةـ الـانتـصـارـ، تـزـينـهاـ كلـ أـسـمـاءـ الشـهـادـهـ وـالـجـرـحـىـ وـالـثـابـتـيـنـ منـ أـبـنـاءـ ذـاكـ الشـعـبـ الأـبـيـ الـكـرـيمـ.

لـقدـ اـسـتـمـعـتـ إـلـىـ تصـرـيـحـاتـ الطـبـيـبـ عـنـ الشـهـادـهـ وـالـأـطـفـالـ وـهـوـ يـقـوـلـ: إـنـ الجـثـ وـصـلـتـ مـحـرـقـةـ وـمـقـطـعـةـ بـشـكـلـ كـامـلـ، مـاـمـاـ صـعـبـ التـعـرـفـ عـلـىـ هـوـيـةـ بـعـضـ الشـهـادـهـ..

وـذـكـرـتـ عـنـدـهـ مـقـوـلـةـ عـمـرـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - يـوـمـ لـمـ يـعـرـفـ أـسـمـاءـ بـعـضـ الشـهـادـهـ.. فـماـ زـادـ أـنـ قـالـ: "لـكـنـ الـذـيـ أـكـرمـهـ بـالـشـهـادـهـ يـعـرـفـهـ"!

فيـاـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ يـاـ فـاتـحـ الـأـقـصـىـ، وـمـذـلـ الـظـالـمـينـ وـنـاـشـرـ الـعـدـلـ وـالـحرـيـةـ وـالـكـرـامـةـ:

هـلـ أـتـاكـ نـبـأـ الـأـمـةـ بـعـدـ قـرـونـ؟! عـرـضـ مـسـتـبـاحـ، وـدـيـنـ مـضـطـهـدـ، وـأـمـلـ مـغـتـالـ، وـطـفـلـ يـنـتـحـبـ، وـمـسـجـدـ يـتـهـدـمـ،.. وـآـخـرـونـ يـصـطـفـونـ فـيـ طـوـابـيرـ الـعـمـالـةـ، يـتـقـوـتـونـ الـخـبـزـ مـنـ أـيـدـ مـلـوـثـةـ بـدـمـاءـ أـبـنـائـاـ.. وـيـصـافـحـونـ الـخـوـنـةـ فـيـ الـأـرـوـقـةـ!!

إـنـهـ مـقـارـنـةـ تـفـرـضـ نـفـسـهـاـ فـيـ كـلـ وـقـتـ وـحـينـ، بـيـنـ قـوـمـ طـابـتـ أـنـفـسـهـمـ لـمـ اـعـنـدـ رـبـهـمـ، وـرـأـواـ الـحـيـاةـ كـلـهـ طـاعـةـ لـهـ وـعـبـودـيـةـ، فـلـمـ يـهـمـهـ ذـكـرـهـمـ وـلـاـ عـلـوـهـمـ فـيـهـاـ، فـرـاحـوـ يـنـشـرـوـنـ مـعـانـيـ التـضـحـيـةـ وـالـفـداءـ، يـرـجـوـنـ رـحـمـتـهـ وـيـسـارـعـونـ إـلـىـ جـنـتـهـ، وـبـيـنـ آـخـرـينـ غـرـتـهـمـ الـأـيـامـ وـاجـتـالـتـهـمـ أـلـوـانـ الـزـخـارـفـ، وـجـذـبـهـمـ بـرـيقـ الـمـالـ، وـاستـكـانـةـ الـرـاحـةـ، وـصـوـلـجـانـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ النـاسـ، فـذـلـواـ لـعـدـوـهـمـ، وـقـدـمـواـ لـهـ قـرـابـيـنـ الـوـلـاءـ!

ثـمـ أـخـبـرـتـ الـأـبـيـاءـ أـنـ قـادـةـ الـغـلـ الـحـقـودـ قدـ اـتـخـذـواـ قـرـارـاـ أـنـ يـسـتـمـرـ سـفـكـ الدـمـاءـ، غـيرـ آـبـهـيـنـ بـذـاكـ الـبـرـكـانـ الـمـتـزـلـلـ فـيـ الـقـلـوبـ وـالـنـفـوسـ، غـيرـ آـبـهـيـنـ بـتـلـكـ الـمـجازـرـ، وـأـنـهـ أـحـكـمـواـ الـحـصـارـ عـلـىـ حـمـصـ، وـأـغـلـقـواـ الـطـرـقـاتـ، وـقـطـعـواـ الـكـهـرـبـاءـ، وـقـصـفـواـ الـمـدـارـسـ، وـسـدـواـ الـطـرـيـقـ إـلـىـ الـمـسـاجـدـ، وـاـسـتـهـدـفـواـ سـيـارـاتـ الـإـسـعـافـ، وـأـنـ الطـائـرـاتـ الـتـيـ قـصـفـتـ الـأـطـفـالـ فـيـ الصـبـاحـ، سـتـعـودـ بـالـمـسـاءـ، تـرـيـدـ إـشـبـاعـ النـهـمـ لـلـدـمـاءـ.

وـأـنـتـمـ أـيـاهـاـ الـفـرـسـانـ: لـقـدـ عـلـمـتـ الـعـالـمـ مـعـنـيـ الـمـعـجـزـةـ عـنـدـمـاـ تـحـولـ إـلـىـ وـاقـعـ يـحـيـاـ، جـسـدـ مـكـبـلـ وـرـوحـ رـفـرـافـةـ، مـوـلـدـ جـيـشـ جـدـيدـ وـسـلـاحـ بـلـوـنـ جـدـيدـ، وـصـارـوـخـ مـصـنـوـعـ مـنـ الـبـيـدـ النـازـفـةـ، وـغـضـبـةـ مـوـقـوـتـةـ مـلـؤـهـاـ يـقـيـنـ وـثـبـاتـ، وـتـوـكـلـ وـإـنـابـةـ.. وـرـغـبـةـ فـيـ الـخـلـودـ. لـقـدـ رـقـيـتـ مـرـتـقـيـ سـمـاـوـيـاـ، وـتـرـكـتـمـوـنـاـ هـاـهـنـاـ، وـحـدـنـاـ، نـعـانـيـ الـقـيـدـ وـأـسـرـ الـزـخـارـفـ وـالـشـهـوـاتـ، وـنـلـمـلـمـ فـيـ كـلـ يـوـمـ بـقـايـاـ الـانـكـسـارـ مـصـحـوـبـةـ بـثـمـنـ بـخـسـ مـهـيـنـ..

لـكـ نـشـعـرـ بـمـرـارـةـ فـيـ حـلـوقـنـاـ وـحـسـرـةـ فـيـ مـشـاعـرـنـاـ أـنـاـ لـمـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـقـدـمـ سـوـىـ النـزـرـ النـادـرـ الـقـلـيلـ، وـلـمـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـمـسـحـ دـمـعـةـ طـفـلـ لـفـرـاقـ أـبـيـهـ، وـلـمـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـعـالـجـ جـرـحاـ نـازـفـاـ فـيـ صـدـرـ أـبـيـ صـامـدـ، وـلـمـ نـسـتـطـعـ تـقـدـيمـ شـرـبـةـ مـاءـ لـحـلـقـ قدـ أـكـلـهـ الـجـفـافـ، وـلـمـ نـسـتـطـعـ حـتـىـ أـنـ نـشـارـكـ فـيـ جـنـازـةـ الشـهـادـهـ.

إـنـ اـهـتـمـاـنـاـ لـأـمـرـكـ لـيـسـ شـأـنـاـ خـاصـاـ بـنـاـ، وـبـكـاءـنـاـ عـلـىـ آـلـاـمـكـ لـيـسـ مـجـرـدـ عـاطـفـةـ عـابـرـةـ فـيـ صـدـورـنـاـ، وـحـرـصـنـاـ عـلـىـ خـيرـكـمـ لـيـسـ فـضـلـاـ كـامـنـاـ فـيـنـاـ، وـرـغـبـتـنـاـ فـيـ نـصـرـتـكـمـ لـيـسـ صـدـقـةـ نـتـصـدـقـهـاـ، إـنـمـاـ اـهـتـمـاـنـاـ بـكـمـ وـاجـبـ شـرـعـيـ فـيـ أـعـنـاقـنـاـ، وـبـكـائـنـاـ إـنـمـاـ هوـ عـلـىـ جـرـاحـ أـجـسـادـنـاـ الـتـيـ إـنـاـ اـشـتـكـيـ مـنـهـاـ عـضـوـ تـدـاعـيـ لـهـ سـائـرـهـاـ بـالـحـمـىـ وـالـسـهـرـ، وـنـصـرـتـكـمـ دـيـانـةـ وـثـوـابـ، وـعـزـةـ لـنـاـ وـكـرـامـةـ، وـحـرـصـنـاـ عـلـىـ خـيرـكـمـ هوـ حـرـصـ النـفـسـ عـلـىـ خـيرـ ذـاتـهـ..

فـيـاـ أـيـاهـاـ الـشـعـبـ الـحـبـيـبـ.. نـسـتـمـيـحـكـ عـذـراـ أـنـاـ لـاـ نـقـدـرـ لـكـ سـوـىـ عـلـىـ ذـاكـ الـقـلـيلـ، وـلـكـ عـزـاءـنـاـ أـنـهـ قـلـيلـ قـدـ قـطـعـنـاـهـ مـنـ جـوـفـ قـلـوبـنـاـ، دـعـاءـ وـابـتـهـالـاـ، وـرـجـاءـ وـتـضـرـعـاـ لـلـهـ الـكـرـيمـ.

المصدر: موقع التأصيل

المصادر: